

ما هي اللغة؟

هل هي مجرد وسيلة للتواصل أم ظاهرة كونية غامضة؟



تخيل أن ظاهرة كونية غامضة وقعت في لحظة واحدة وعلى امتداد الأرض كلها.

لم تكن انفجاراً، ولا وباءً، ولا كارثة طبيعية.

لم تسقط الأبنية، ولم تطفئ الشمس، ولم تغرق المدن.

ومع ذلك، كانت أعظم كارثة عرفت البشرية منذ ظهورها.

تعريف مختصر:

اللغة هي الجسر الذي يعبر به الإنسان من عالمه الداخلي إلى العالم الخارجي؛ فهي ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل أداة للتفكير، وصياغة المعنى، وبناء الهوية، ونقل المعتقدات والقيم عبر الأجيال.

ماذا حدث؟

في جزء من الثانية، فقد الإنسان اللغة كلها، وفقد معها القدرة على أي شكل آخر من أشكال التخاطب الرمزي.

لم يعد أحد يفهم كلمة واحدة، ولم تعد حتى لغة الإشارة ذات جدوى.

استيقظ الناس في الصباح التالي ليكتشفوا أن الأصوات الخارجة من أفواه الآخرين ليست سوى ضجيج بلا معنى.

لم تعد الكلمات تشير إلى الأشياء، ولا الحروف تحمل الأفكار،

ولا الرسومات أو الإشارات أو الرموز قادرة على تمثيل أي شيء.

لقد اختفت الفكرة نفسها التي تجعل شيئاً ما يدل على شيء آخر.

أما العلماء الذين قضوا أعمارهم في بناء النظريات وصياغة المعادلات،

فقد وجدوا أنفسهم محاطين بكتب لا تختلف عن جدران صامته مغطاة بخطوط غريبة لا تفضي إلى معنى.

ماذا يعني ان نفقد اللغة؟

في البداية، قد يبدو الأمر وكأن البشرية فقدت مجرد وسيلة للتواصل، لكن الحقيقة أعمق من ذلك بكثير.

فاللغة ليست أداة نستخدمها كما نستخدم المطرقة أو السيارة،

بل هي الوسط الذي نحيا داخله دون أن نشعر.

إنها الهواء الخفي الذي نتنفسه أفكارنا:

حين نتفاهم مع الآخرين، نفعل ذلك باللغة.

وحين نخطط للمستقبل، نفكر باللغة.

وحين نستعيد الماضي، نستحضره من خلال اللغة أيضاً.

ولهذا، فإن السؤال الحقيقي ليس: كيف سيتواصل الإنسان من دون لغة؟

بل: هل سيبقى الإنسان هو الإنسان من دونها؟

ماذا يحدث إذا فقد الإنسان اللغة؟

في الأيام الأولى بعد الكارثة، ستعم الفوضى.

لن تتمكن الحكومات من إصدار أوامر مفهومة،

ولن يستطيع الأطباء شرح العلاج لمرضاهم،

ولن يتمكن الطيار من التواصل مع برج المراقبة،

ولا القاضي من فهم الشهود، ولا المعلم من نقل المعرفة إلى تلاميذه.

وسرعان ما ستتوقف المؤسسات الحديثة عن أداء وظائفها،

لأن الحضارة ليست مجرد مبانٍ وآلات، بل شبكة هائلة من المعاني المشتركة.

وما إن تنهار تلك المعاني حتى تتحول المدن الذكية إلى كتل من الإسمنت والمعادن.

لن يحتاج العالم إلى حرب كي ينهار؛ سيكفيه أن يفقد اللغة.

وماذا سيبقى؟

قد يبقى الإنسان قادراً على الرؤية والإحساس والتذكر في صورة انطباعات وصور ذهنية،

لكنه سيجد نفسه محصوراً في حدود التجربة المباشرة.

سيرى الأشياء، لكنه لن يستطيع تصنيفها.

وسيشعر بالخوف، لكنه لن يسميه خوفاً.

وس يختبر الشوق، دون أن يمتلك مفهوماً مجرداً للشوق نفسه.

سيغدو الوعي نهراً متدفقاً من الصور والانفعالات، بدون الكلمات التي تمنحه شكله وحدوده.

لن يموت العلم لأن العلماء ماتوا، بل لأن المعرفة نفسها فقدت قدرتها على الانتقال.
وستصبح الحضارة الإنسانية كقصر عظيم ما تزال جدرانه قائمة،
غير أن سكانه نسوا لماذا شُيّد وكيف يمكن الدخول إليه.

مكونات الحضارة

الحضارات لا تقوم على القوة الجسدية، ولا على الذكاء الفردي وحده،
بل على القدرة على مشاركة الأفكار عبر الزمن.
واللغة هي الجسر الذي يصل عقلاً بعقل، وجيلاً بجيل لم يولد بعد.

إن محاولة تخيل الإنسان بلا لغة تكشف لنا حقيقة مذهلة: نحن لا نستخدم اللغة فحسب، بل تتشكل إنسانيتنا من خلالها إلى حد بعيد. فهي ليست مجرد وسيلة للتعبير عن ذواتنا، بل أحد الشروط الأساسية لوجودنا بالصورة التي نعرفها.

فالإنسان كائن يعيش داخل اللغة، ويعيد تشكيل العالم من خلالها، ويترك أثره في الزمن بفضلها.
ولهذا، فإن فقدان اللغة لن يكون فقدان أداة، بل فقدان عالم كامل؛ عالم المعاني والذكريات والوعود والأسئلة والأحلام.

علاقة الانسان باللغة

لعل هذا ما يفسر تلك العلاقة العجيبة التي تربط الإنسان بلغته. فنحن لا نستعملها حين نتحدث فحسب، بل نظل نحيا داخلها حتى عندما نصمت. فما نسميه صمتاً ليس، في الغالب، سوى كلام مؤجل يدور في أعماقنا.
إننا نحاور أنفسنا بلا انقطاع؛ نستعيد الماضي، ونتخيل المستقبل، ونراجع اختياراتنا، ونصوغ هويتنا عبر ذلك الصوت الداخلي الخفي.

الوجه الآخر للعملة

إن لهذا الارتباط وجهاً آخر أقل إشراقاً.

فذلك الصوت الذي منح الإنسان القدرة على التأمل والتخطيط والمعرفة، هو ذاته الذي حرّمه من السكون الكامل.
فمنذ أن تعلم الإنسان الكلام، أصبح عاجزاً عن التوقف عن الحديث مع نفسه. وحتى عندما لا يكون هناك ما ينبغي قوله، تستمر الكلمات في التدفق، كأن اللغة استوطنت العقل ولم تعد تكتفي بخدمته.

وربما يكمن الجانب المظلم للغة في أنها لم تمنح الإنسان القدرة على التفكير فحسب، بل جعلته أسيراً لها أيضاً.
فبينما تعيش الكائنات الأخرى داخل اللحظة الراهنة، يقضي الإنسان جزءاً كبيراً من حياته في حوار لا ينتهي مع ماضيه ومستقبله واحتمالاته ومخاوفه.

وكأن الثمن الذي دفعه لقاء اللغة لم يكن مجرد فقدان الصمت، بل فقدان القدرة على النجاة منها.

وإذا كانت اللغة قد منحت الإنسان القدرة على التفكير،

فربما يكون السؤال الأهم ليس: كيف نتكلم؟ بل:
كيف نتعامل مع ذلك الصوت الداخلي الذي لا يتوقف عن الكلام؟

03.07.2026

عدنان عبد الستار & امل ابراهيم

إذا كانت اللغة تصنع عالمنا الداخلي، فكيف تؤثر في صورة الإنسان عن نفسه؟
اقرأ المقال:

ما هي الأنا؟ رحلة لفهم الذات والهوية

إذا كانت اللغة تمنحنا القدرة على التفكير، فكيف نستعيد السكون وسط هذا الحوار الداخلي؟
اقرأ المقال:

ما معنى العودة إلى الذات؟ الطريق إلى المركز الداخلي